

# الأزهر يعمل على تكريس الإرث التقليدي بمحافظته على صورة القداسة المتوهمة للدين

## فهم الإسلاميين الملتبس لأفكار الغرب ينعش سوق المتشددين



التسامح أبعد من صورة مع البابا

المتطرف وعدم تفاعل أئمة المساجد مع الرأي العام ومع هموم ومشاكل المسلمين الحقيقية.

ووضع تنامي تأثير الإسلام السياسي والسلفية الجهادية، والذي انعكس في السيطرة على المئات من المساجد بفرنسا، وهيمنة التنظيم الدولي لجماعة الإخوان على اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا والمكون من ألف منظمة، علامات استفهام تدبني مشاريع إسلاموية أممية، لا لخدمة دول ومجتمعات وشعوب.

وتطلب الحضور الإيجابي فاعلية في تجديد الإسلام وتطوير خطابته وملا مكان الأئمة الأتراك والدعاة الذين جعلوا الألاف من الشباب المسلم بالوطن الشرع التركي الأممي ويعتقدون خلافة أردوغان، لا المجادلة المغلوطة المكررة والمبنية على توظيف إساءة فهم العبارات والمصطلحات.

وما جعل جهد مؤسسة الأزهر غير مؤثر ومنقوصا في الغرب وفي أوساط المسلمين بدول أوروبا ورغم ما تقوم به مؤسسات تابعة للأزهر من جهود بحثية تدرس أوضاع المسلمين وأحوالهم، هو عدم القدرة على طرح البديل، بالنظر إلى جذور الأزمة الحقيقية المتعلقة بمعضلة الطريق لتغيير المستحبات والمعاصرة، علاوة على تقييد حرية العقل وحرية التفكير والرأي المخالف حتى من داخل المؤسسة وليس فقط من قبل مفكرين من خارجها.

ويمثل المصمود المذهبي والتقييد ببقية المذاهب الأربعة وتقديس الأسلاف واجتهاداتهم القديمة أزمة أمام السعي لبسورة اجتهاد حقيقي عصري نتيجة لتغير حركة الزمن وتطور حركة التفكير وتغيير المستحبات والمعاصرة، علاوة على تقييد حرية العقل وحرية التفكير والرأي المخالف حتى من داخل المؤسسة وليس فقط من قبل مفكرين من خارجها.

ولكها قيود تعرقل حركة الأزهر الفاعلة والمؤثرة بما يصنع تغييرا حقيقيا لصالح صورة الإسلام الإيجابية ومصحة المسلمين في الغرب في مواجهة تأثيرات مشاريع تركيا وجماعة الإخوان، لا يجادل أحد في إدانة الإرهاب ومن يمارسه، لكن دور الأزهر لا يقتصر على الإبانة بل يمتد للمعالجة والتصحيح وخلق سبل الوقاية، وأول خطوة على الطريق تحرير المصطلحات وتفكيكها وعدم اللعب والمناورة بها، وتشجيع أجيال جديدة من المفكرين المجددين، بدلا من وادهم ومطارتهم كما جرى لأجيال التنويريين السابقة بالفصل من وظائفهم وتقديمهم إلى المحاكمة والتضييق عليهم.

وضع دعاة الأزهر هؤلاء بين كراهية الإسلام والتطرف، مع العلم أن تيار الإسلام السياسي هو من جعل الإسلاموفوبيا كواجهة أساسية لتجديد الشباب وتعبئة مشاعرهم الدينية ما وسع من دائرة التطرف والإرهاب.

وتحولت الإسلاموفوبيا من نظرية يوظفها علماء الأزهر للضغط على الحكومات الغربية وللتحلل من القيام بواجب التجديد وتصحيح المفاهيم، إلى ردة فعل عملية وحالة كراهية مضادة مسلحة بالتكفير والعنف، وتحول كثير من الشباب من الاندماج والمواطنة والتعايش إلى التمرد والانفصال، ما يؤكد أن الكراهية ساعدت الإرهاب وحققت أهداف الجماعات التكفيرية.

وأكثر من استفاد من الترويج لخطاب الكراهية بدول الغرب هم قادة جماعات السلفية الجهادية وتيار الإسلام السياسي من خلال خلق حضور لهم مع فشل أعضاء داعش والقاعدة من الشباب الغربي في الانضمام إلى صفوف تلك التنظيمات خارج أوطانهم بعد انهيار خلافة داعش وأزمات المقاتلين الأجانب، فوجدوا ما يغنيهم عن ذلك بخلق بيئة انغمسوا فيها لخدمة أهدافهم داخل المجتمعات الغربية، عبر استقطاب شباب لم يعد يجد في قيم الغرب ولا في نمط عيشه إمكانية للحفاظ على دينه وهويته الدينية.

ودخل الأزهر وشيخه معترك الأزمة في فرنسا محملا بالتقصير في مهمته الرئيسية، وهي الاضطلاع بمهام تجديد وتطوير الخطاب الديني، وطرح رؤية إسلامية متطورة تدمج المسلمين في مجتمعاتهم، لأن من طرحوا رؤى تكفيرية وانفصالية مضادة وظفوا نصوصا دينية مشكوكا فيها أو مقتطعة من سياقها أو تم تاويلها تعسفا لتبرير ممارساتهم.

### الهروب إلى الأمام

بدا موقف علماء الأزهر من الأزمة كمن يهرب للأمام لعدم منح الأطراف الأخرى فرص مطالبته بالقيام بالمهمة المنوطة به، وهي طرح مشروع ديني تنويري عقلائي تشاركي وعصري لمواجهة أفكار ومناهج الجماعات الأصولية المتطرفة والتكفيرية، ولا تجد دعايات الجماعات المتطرفة على الإنترنت والتي تحولت إلى نزاع لاستقطاب الشباب نحو التطرف ما يبدحها من أطروحات أزهرية تنويرية، وهو ما وسع جانبا ما يروج له بالمساجد من خلال الأئمة الأتراك ودعاة تيار الإسلام السياسي الفجوة ما بين المجتمعات الأوروبية والإسلامية والغربية نتيجة عدم تقبل الخطاب

والمنهجي في آراء وقناعات غالبية المفكرين، فهم وإن اعتبر بعضهم الإسلام دين سلام إلا أنهم لا يلمسون جهودا فاعلة لتصحيح وضبط التاويلات المتشعبة لمضامينه ونصوصه، ما يفتح الباب واسعا أمام توظيفها ضد قيم العيش المشترك.

### غياب العقل الإسلامي

إذا كان الأصوليون التكفيريون الانفصاليون يوظفون الدين في مسار مضاد، وهو الصراع الكوني والحرب بين البشر ونشر الكراهية، فإن الأحداث الأخيرة أثبتت أن هذا هو السائد بين قطاعات واسعة في الغرب، ما يؤكد غياب العقل الإسلامي النقدي الموكل له ترسيخ المحبة والسلام والتعايش بين الناس. وتوقع الدعاة الرسميون في فتح ما تسوق له الأصولية المتشعبة التي تزعم أن مطلب مراجعة التراث وتجديد الدين مطلب غربي يراد به تشتيت الأمة وغزوها بمناهج التحلل والتحرر من الثوابت، ضمن إعادة إنتاج لسجلات قارب المئة سنة حرم العالم من تعايش طبيعي بين الأديان وكرس لخطاب التباعد والكراهية.

وهذا الواقع خلق وضعًا شاذًا مسيئًا للإسلام ومحبطًا للمسلمين، حيث لا يُرَوج فقط لتلك الأفكار الرجعية التي تدعو لكراهية غير المسلمين بسبب معتقداتهم وعدم الانتماء في وجوههم واحتقار المرأة وعدم مصافحتها في بيئات عشوائية وصرعوية ومهمشة بدولة من دول العالم الثالث، إنما في قلب مجتمعات وصلت لذروة التقدم الحضاري والصناعي والتكنولوجي، أذى سوء فهم جوهر الإسلام وما يحققه من مصلحة كدين مشارك وسوء فهم طبيعة المجتمعات الغربية وما تحتاجه من مواطنين مشاركين يقدمون انتماءهم لوطنهم، إلى التباعد والانعزالية ونشر الكراهية التي تعتبر المغذي الرئيسي للتطرف والإرهاب.

وفي ردة فعله على تصريحات الرئيس الفرنسي والمسؤولين الفرنسيين لم يلتقط شيخ الأزهر الفكرة الأصلية، ورغم استنكاره لممارسات المتطرفين والعمليات الإرهابية لم يركز على خطاب الكراهية، على الرغم من كونه المؤسس الأول لموجة التطرف والإرهاب والتكفير التي ضربت أوروبا، ودفعت بالآلاف من الشباب المسلم إلى الانضمام لجور الإرهاب.

التي تعتنق نسخة دينية موجهة عن بعد لأغراض سياسية. وأمام مطلب التحديث والتجديد للتأسيس لإسلام مدمج في قيم الجمهورية يحترم مؤسساتها وقوانينها، بما يتواءم مع روح الإسلام ويتسق مع مفاهيمه، هناك التناقض المتمم حول التراث والسلف بزعم الخوف من مس دقاسة الماضي، ما جعل آراء غالبية الدعاة الرسميين والمستقلين خيرية لنمو المتطرفين والتكفيريين في دول الغرب.

وانعكس ذلك على واقع الحال في أوروبا، حيث تجلى هذا العجز الفكري

وتجديدية إسلامية كان من المفترض أن تضطلع بها المؤسسات الدينية وعلى رأسها الأزهر من خلال إعلاء قيمة المواطنة وجعلها الأقرب لتبنيها في الفضاءات الأخلاقية والاجتماعية والقانونية والسياسية لتسبيق أي روابط أخرى سواء كانت دينية أو مذهبية أو عرقية وقومية. ومصطلح الإسلام الغربي ومشروع دمج المسلمين والقضاء على التكفير والانفصالية الإسلامية، جميعها تعبير عن قيمة المواطنة، وهي ليست بعيدة عن روح الإسلام كغيرها من العديد من القيم الحداثية التي لم تجد من علماء المسلمين من يبذل جهدا في تجليتها وطرحها في صورتها الإسلامية، بغرض إنقاذ الإسلام ذاته من كراهيته والتعاطي معه كدين غير مناسب للعصر والإفادة المواطن العربي المسلم المهاجر من بلاده، والمسلم المقيم في الغرب بضمان حقه كموطن في الاختلاف والحرية والتعدد المذهبي والعقدي والمشاركة في المجال العام وتولي المناصب دون أدنى تمييز ديني أو عرقي أو عنصري.

لب القضية والإشكالية المطروحة حاليا تتمثل في قيمة المواطنة التي لم تتساوق مع ما تقرره مناهج الأزهر، التي لا تزال تعتمد مصطلح الرعية، وهو ما انعكس على أطروحات معلنة في مؤتمرات تحمل عناوين التجديد كما جرى في البيان الختامي لمؤتمر تجديد الفكر الإسلامي في يناير 2020، وتحدث عن المواطنة موطفا مصطلح الرعية دون حسم منهجي.

وأن يقبل المسلم العيش في فرنسا مثلا باعتباره فرنسيا مسلما ويكون انتماءه لوطنه سابقا على أي انتماء طائفي أو مذهبي، لا يجد روافد فقهاء وفكرية تؤسس له داخل الخطاب الفقهي الرسمي بالدول العربية، وهو ما استغلته جماعات الإسلام السياسي في الغرب، لأن هذا الخطاب الفقهي قائم داخل مناهج المؤسسات الرسمية على تمايزات بين الرجل والمرأة، والحر والعبد، والمسلم وغير المسلم.

يُثير دخول الأزهر في مصر على خط السجلات المتصاعدة بشأن مقاربات الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون تساؤلات عن نجاحه في الاضطلاع بالدور الأساسي الموكل له وهو بث أفكار تنويرية تدحض طروحات الجماعات الإسلامية والتكفيريين، حيث أظهرت ردود فعل الأزهر عجزه عن النجاح في مهمته.

بان دمج المسلمين في النظام العلماني وتقديم قيمة المواطنة هو بمثابة تمييز وعنصرية ضد الإسلام وحده؟

هشام النجار  
كاتب مصري

### حرب في البحر

اختبرت أفكار ماكرون جهود تجديد الخطاب الديني ومكافحة الإرهاب بالدول العربية وأظهرتها كفاشلة وأنها تحرث في البحر، لكونها تتمحور حول عجز في التواصل له وهو دمج الإسلام في المجتمع وجعله جزءا من منظومة الدولة المدنية والقيم العلمانية مع باقي الديانات الممارسة.

ليست العلمانية نغيا للإسلام أو تقويضاً لقيمه ومفاهيمه، بل تنسجم مع مبادئه الأساسية المتعلقة بحياة الدولة إزاء الديانات السماوية والحرية الدينية للجماعات والأفراد واحترام التعددية، وهو ما فشلت المؤسسات الدينية في إصاليه وترسيخه كقناعات مسلم بها لدى قطاعات واسعة من المسلمين.

محاولات دول غربية لطبع الإسلام بروح حضارية ليصبح صالحا للعيش والتعايش في جمهورية مدنية علمانية تعددية، لم تعاونها جهود فكرية وتجديدية إسلامية كان من المفترض أن تضطلع بها المؤسسات الدينية وعلى رأسها الأزهر من خلال إعلاء قيمة المواطنة وجعلها الأقرب لتبنيها في الفضاءات الأخلاقية والاجتماعية والقانونية والسياسية لتسبيق أي روابط أخرى سواء كانت دينية أو مذهبية أو عرقية وقومية.

ومصطلح الإسلام الغربي ومشروع دمج المسلمين والقضاء على التكفير والانفصالية الإسلامية، جميعها تعبير عن قيمة المواطنة، وهي ليست بعيدة عن روح الإسلام كغيرها من العديد من القيم الحداثية التي لم تجد من علماء المسلمين من يبذل جهدا في تجليتها وطرحها في صورتها الإسلامية، بغرض إنقاذ الإسلام ذاته من كراهيته والتعاطي معه كدين غير مناسب للعصر والإفادة المواطن العربي المسلم المهاجر من بلاده، والمسلم المقيم في الغرب بضمان حقه كموطن في الاختلاف والحرية والتعدد المذهبي والعقدي والمشاركة في المجال العام وتولي المناصب دون أدنى تمييز ديني أو عرقي أو عنصري.

لب القضية والإشكالية المطروحة حاليا تتمثل في قيمة المواطنة التي لم تتساوق مع ما تقرره مناهج الأزهر، التي لا تزال تعتمد مصطلح الرعية، وهو ما انعكس على أطروحات معلنة في مؤتمرات تحمل عناوين التجديد كما جرى في البيان الختامي لمؤتمر تجديد الفكر الإسلامي في يناير 2020، وتحدث عن المواطنة موطفا مصطلح الرعية دون حسم منهجي.

وأن يقبل المسلم العيش في فرنسا مثلا باعتباره فرنسيا مسلما ويكون انتماءه لوطنه سابقا على أي انتماء طائفي أو مذهبي، لا يجد روافد فقهاء وفكرية تؤسس له داخل الخطاب الفقهي الرسمي بالدول العربية، وهو ما استغلته جماعات الإسلام السياسي في الغرب، لأن هذا الخطاب الفقهي قائم داخل مناهج المؤسسات الرسمية على تمايزات بين الرجل والمرأة، والحر والعبد، والمسلم وغير المسلم.

القاهرة - فتح الفهم الملتبس لطروحات السياسة الغربية على خلفية التطورات الجارية في فرنسا، المجال لإنعاش سوق المتطرفين الحاملين بالدولة الدينية على حساب نسف قيم التسامح والمواطنة والتعايش الإنساني. وتوقعت ردود أفعال وبيانات كبار رموز الأزهر على المستجدات المتسارعة داخل حيز شواغلهم المتعلقة بالدفاع عن احتكار الحديث باسم الإسلام السني، وعدم السماح بمزاحمة جهات أخرى في مسألة التجديد الديني، والحفاظ على صورة القداسة والشعبية المتوهمة المكتسبة من عدم الإذعان لريجات الحكام، وتكريس الإرث التقليدي في التعاطي مع كل ما هو وافد من الغرب كمناهض للمفاهيم الإسلامية ومضاد لها.

### أفكار ماكرون اختبرت جهود

تجديد الخطاب الديني ومكافحة الإرهاب في الدول العربية وأظهرت فشلها وكأنها تحرث في البحر

إصرار ممثلي مؤسسات دينية، مثل الأزهر، على حرف القضية باتجاه لوم القادة الغربيين واتهامهم بالعنصرية بسبب لصق تصريفات مسلمين بالإرهاب من شأنه تكريس عدم فهم طبيعة الدين والافتقار إلى التطبيق الصحيح له نتيجة عدم الحرص على الفصل بين الإسلام الواسطي وإسلام الجماعات التكفيرية، بما يمنح الجهلة والمستفيدين من نسخة المسيحية فرص تطبيقها بما لا يفيد سوى القوى الداعمة لتيار الإسلام السياسي.

ويُسهم التعاطي التقليدي من قبل بعض العلماء المسلمين مع ما يطرحه السياسة الفرنسيين من حلول ومضارح، المعضلة التكفير والإرهاب والانفصالية الإسلامية، في تقوية شوكة الجماعات المتطرفة، دون التفات للممكن المعضلة التي يعانى منها المجتمع الغربي، والمتعلقة بنسخة الإسلام المسيحية التكفيرية، لا بالإسلام ذاته كدين، عكس ما يروج له قادة الجماعات الأصولية للحفاظ على مكاسبهم السياسية وأربابهم المادية، ووقع في فخ دعاة الدين الإسلامي.

ويحتم التعامل المنطقي مع حالة كهذه تدعيم جهود فرنسا والحكومات الأوروبية في مسار تهئية المجتمعات الغربية لعلاقات ومسارات مختلفة مع الإسلام الحقيقي والصحيح، بمعزل عن إسلام الجماعات المتطرفة وتصوراتها الصادة، ما يتطلب إقامة علاقات مع دعاة وأئمة مسلمين مشاركين ومنفتحين يروجون لنسخة عصرية وحضارية للإسلام، مقابل وقف أنشطة كل من يحمل مشروعا مناهضا للقيم الحضارية من الساعين لتنفيذ مشاريع دينية ذات طابع أممي.

وتغافل رموز الأزهر من خلال ردودهم على طروحات الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون عبر التلميح بالعنصرية ضد الإسلام، أن التحرك ضد النسخة التكفيرية للإسلام من خلال طرح مشروع مناهض يُعنى بدمج المسلمين داخل مجتمعهم الغربي، هو وسيلة متبعة ومجرية مسبقا مع الكاثوليك والبروتستانت واليهود على خلفية الصراعات التي عاشتها فرنسا مع هذه الديانات، وكانت تسعى أيضا لغيتها تميزها عن غيرها.

واستقرت بمرور الزمن، وأدت إلى قبول مختلف الطوائف الدينية بالاحترام إلى الميثاق الجمهوري وفصل الدين عن الدولة، فلماذا الإصرار على الزعم